

## الفصل الأول

### عصبر الجاحظ

#### ١ - البيئة للسياسية

تقوضت أركان الدولة الأموية في الشام بعد أن اشتعلت نيران الثورة العباسية في العراق وخراسان يضرهما أبو مسلم الخراساني وقائده قحطبة بن شبيب الطائي<sup>(١)</sup> ، ومشى العباسيون يرفعون الراية السوداء من مكان إلى مكان والنصر حليفهم ، وإذا أبو العباس في مسجد الكوفة ينادى بنفسه خليفة ، وإذا الزاب الأعلى<sup>(٢)</sup> . يشهد حطمة مروان الثاني الخليفة الأموي ، وإذا بلاد الشام كلها تفيض بجيوش الثائرين ، وإذا أبو فطرس<sup>(٣)</sup> يشهد امتثال شافة الأمويين ما عدا عبد الرحمن ، صقر قريش ، مؤسس الدولة الأموية الأندلسية :

اتخذ أبو العباس السفاح (٧٤٩ - ٧٥٤ م / ١٣٢ - ١٣٦ هـ) الهاشمية قرب الأنبار قاعدة له ، ولما قام بعده أبو جعفر المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م / ١٣٦ - ١٥٨ هـ) وامتدت على يده حدود الإمبراطورية العباسية حتى بلغت كشمير في الهند ، فكر في عاصمة لمملكته تكون بعيدة عن الكوفة موطن الثورة والعصيان ، وقريبة من فارس ، تفتح أبوابها على عوالم من الثقافات

(١) هو أحد الدعاة الاثني عشر الذين بثوا الدعوة سرّاً للعباسيين .

(٢) الزاب الأعلى : ميدان المعركة الفاصلة التي جرت في بلاد الموصل بين مروان الثاني

وقواده وبين العباسيين .

(٣) أبو فطرس : نهر بقلسطين ؛ كان مروان الثاني قد عرج به ، بعد هزيمته في الموصل

في طريقه إلى مصر .

والمدينتان . فوقع اختياره على قرية مسيحية قائمة على ضفة دجلة الغربية اسمها بغداد . فأمر الخليفة أن تحول القرية إلى مدينة ، وأمر بالمهندسين والصنّاع وأرباب العمل ، فإذا قصور الأكاسرة في المدائن تنقل حجارها وأنقاضها لتقوم بها قصور بغداد ، وإذا المدينة الجديدة ترتفع على شكل مستدير في وسطها قصر الخليفة المدعو باب الذهب أو القبة الخضراء ، وإذا المدينة فارسية في مواد بنائها ، فارسية في هندستها ، يصبح فيها قصر الخليفة قلباً تتجه إليه كل الآمال والأعمال ، وتحيط به الجلالة والوقار ، ويقوم بينه وبين الشعب جيش من الموظفين والحجّاب على أسلوب فارسي يبتعد عن الشعبية العربية والبساطة العربية . وارتفعت إلى جنب قصر الخليفة ، قصور فارسية للبرامكة ووزراء الدولة ومستشاريها .

والعباسيون أول من اتخذ الوزراء عن الفرس ، وقد جعلوا في أيديهم مقاليد أمور الدولة ، وعولوا عليهم في أكثر الأحوال ، وجعلوا الوزارة وزارتين : وزارة تفويض تخوّل صاحبها سلطان تدبير الأمور برأيه ، ووزارة تنفيذ يتفدّ صاحبها ما يراه الخليفة ، ويكون واسطة بين الخليفة والشعب يُمضى فيه أمر الخليفة من تقليد الولاة وتجهيز الجيوش وما إلى ذلك .

وهكذا حاكى العباسيون القياصرة والأكاسرة في تنظيم دولتهم ومالوا إلى الترف والرخاء ، واعتمدوا على من يقوم مقامهم في مباشرة الأعمال ، ففقرّعوا المناصب ، وزادوا على الوزراء من يراقب تصرف العمال<sup>(١)</sup> في الأمصار وقلّده ديوان البريد ، ومن يقوم بتختم الرسائل وتسجيلها وقلّده ديوان التوقيع أو الخاتم ، ومن يتولى النظر في ضياعهم وأملاكهم وقلّده ديوان الضياع ، ومن ينظر في حسابات حاشيتهم وخدامهم وقلّده ديوان الخالص ، ومن ينصرف إلى ضرب النقود والقيام بالطراز وسلّموا إليه دار الضرب وديوان الطراز ، وأنشأوا ديوان

(١) العامل : الرئيس والوالي والحاكم .

العزیز ، وهو مجلس الخليفة يرأسه الوزير الأكبر ، وديوان الجيش في مجلسين أحدهما للتقرير والآخر للمقابلة ، وديوان بيت المال للإشراف على الواردات والصادات ، وديوان الجهبذة<sup>(١)</sup> ، للإشراف على مصالح أهل الذمة<sup>(٢)</sup> ، إلى غير ذلك من الدواوين .

أما العمال فكان العباسيون يقيمونهم على الأقاليم البعيدة كالشام ومصر وخراسان ، ومن أشهرهم جعفر بن يحيى البرمكي الذي ولاه الرشيد المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية ، وأخوه الفضل بن يحيى الذي تولى الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك .

ولم يقف العباسيون عند هذا الحد بل تجاوزوه شيئاً فشيئاً إلى إدخال الفرس والأتراك في جندهم ، فكان في الجيش فرقة خراسانية ، وكان في الجيش أيضاً عدد كبير من الفراعنة أى الأتراك ، جمعهم المعتصم من أسواق بغداد لخوفه على نفسه من جنده ، فكانوا على الخلافة والدولة وبالاً ، وقد عملوا على ذلك أركانها وعلى نشر الفوضى في البلاد .

ولم تخلُ البلاد ، في عهد بني العباس ، من حروب وقتل . أما في الداخل فقد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية<sup>(٣)</sup> مؤلفي أبي مسلم الخراساني ، والزنادقة في العراق وفارس ، والعلويين مع ابن طباطبا ، والخرميين<sup>(٤)</sup> مع بابك ، وغيرهم

(١) الجهبذ بفتح الجيم والباء والجهبذ بكسر الجيم والباء لغة : هو الناقد العارف .

(٢) الذمة : الأمان والمهد . والذي : الذي أعطى الذمة أى الأمان فأعطى الجزية .

(٣) « الراوندية » : مذهب أتباع ابن الراوندي كان معتزلاً ثم أصبح من الروافض ، وله كتاب في فضيحة المعتزلة وآخرف الطعن على نبي المسلمين .

(٤) « الخرمية » : مذهب أتباع بابك الخرمي و « خرمية » مدينة في أذربيجان .

ظهر بابك سنة ٢٠١ هـ وملك الجبل عشرين عاماً في خلافة المعتصم إلى أن قبض عليه وقتل سنة ٢٢٣ هـ وكان يدعو إلى الإباحية . ويسمى حصنه « البذ » وفي ذلك يقول أبوتمام من قصيدة يمدح أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي :

|                           |                           |
|---------------------------|---------------------------|
| رى الله منه بابكاً وجيوشه | بقاصمة الأصلاب في كل مشهد |
| بأسمح من صوب الفهام سماحة | وأشجع من صرف الزمان وأنجد |
| في يوم بذ الخرمية لم يكن  | هيبابة فكس ولا بمعد       |

من الذين قاموا في وجه الأمن والسلام ؛ وأما في الخارج فقد أكثر الخلفاء من الصوائف والشواتي ، وهي الحملات والغزوات في الصيف والشتاء ؛ وقد اشتهر في ذلك أبو جعفر والمهدى والمعتمد ، فحاولوا غزو الممالك الملاصقة ولا سيما بلاد الروم .

تلك خلاصة الحالة السياسية في البلاد العربية في عهد الجاحظ ، فقد قامت الدولة العباسية في أول عهدها على القوة واستعانت بالفرس خاصة والشعوبية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين ، فشالت كفة العرب والعروبة ، ورجحت كفة الأعاجم ، واقتصر شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التي احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس في صلب الدولة . ولما نقلت العاصمة إلى بغداد ، تحول وجه الدولة ، عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وجعلوا قصور الخلفاء في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن ، كما أدخلوا طرائق الفرس في تنسيق الدواوين وأساليب الحرب ونظم الحكم . فتحولت الأنظار عن العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، وانفتحت على الحديد والاستفادة منه ، ونشأت من ثم النزعة إلى التجديد ، وعلت المناذاة بمذهب « التخيير » أي تخيير أحسن ما في الحضارات القديمة غير العربية ، وتوسيع الصدر لها والعمل بها .

## ٢ - البيئة الاجتماعية

تعددت عناصر الدولة العباسية في امتداد أطرافها من المغرب إلى مصر والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وما وراء النهر ، واشتد الاختلاف في مييزات تلك العناصر وعاداتها ومناهج تفكيرها ، كما اشتد التمازج فيما بينها . فلم تعد البيئة الاجتماعية عربية تنزع نزعة العروبة الخالصة ، بل قويت فيها الشعوبية

وحركة التحرر من الأخلاق العربية ، فجرّ التمازج انحطاطاً في الأخلاق . وكانت اقتصاديات البلاد واسعة جداً مما فسح لها مجالاً واسعاً في الترف . أما أموال الدولة فكانت في عهد ازدهار الخلافة تؤلف ثروة طائلة إلا أنها بعد المعتصم ، أصبحت بيد الأجناد الغرباء والوزراء والعمال يجمعونها بطرق شتى ويسيتون بذلك إلى الدولة والشعب . وأما أموال الرعية فقد توافرت في المدن حيث عاش الناس في رخاء وسعة ، بعد إذ اهتمت الدولة بالزراعة وشقت لها الأبقية للرّي ، وعززت الصناعة ولاسيما صناعة النسيج ، واستخرجت المعادن من مناجم فارس .

وكان من الترف والفراغ أن شاع اللهو<sup>(١)</sup> في البلاد ومال الناس إلى الغناء والرقص والتفنن في الملبس ، كما مالوا إلى لعب الشطرنج وسباق الخيل والصيد . والصيد أحب ضروب اللهو عند الخلفاء والأمراء ، ولذا أولع النامس بتربية البزاة وكلاب الصيد وما إلى ذلك .

وكان من الترف والفراغ أن شاع التسرى ، وتعاطى الناس المسكرات مرّاً وعلناً ، وعاقر<sup>(٢)</sup> الحمرة حتى بعض الخلفاء . وكانت تعقد لمعاقرة الحمرة والغناء حلقات أنس تُسمّى مجالس الشراب .

وتوافر الطلب على العلماء والشعراء<sup>(٣)</sup> والمغنين وأرباب الموسيقى فاتخذهم الأمراء والأعيان ندماء لهم .

وانتشرت في البلاد تجارة الرقيق ، وكان في بغداد شارع يسمى « شارع

(١) طالع المتخيات ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) طالع المتخيات ص ٧٠ .

(٣) طالع المتخيات ص ٦٦ - ٦٩ .

دار الرقيق» . وكان الأرقاء ، ولا سيما الجوارى ، أنواعاً مختلفة ، فهناك السود من السودان وجنوبي الجزيرة العربية وشمالى إفريقية ، وهناك البيض من أتراك وصقالبة وغيرهم . وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخاسين<sup>(١)</sup> بألوان الحمام ، فشبه الصقالبة بالحمام الأبيض . وشبه الزنج بالحمام الأسود .

واشتهر من الأرقاء الغلمان يلبسون الحلل الجميلة ويتزينون ويتعطرون كالنساء ، والعلاميات الحسان يقصن شعورهن ويلبسن ثياب الغلمان ، وقد تغزل الشعراء بكلا الفريقين .

وقد عنى العباسيون بتعليم الجوارى وتلقيهن الغناء<sup>(٢)</sup> فكُنَّ من أشد العوامل في نشر تلك الصناعة ، كما عملن على نشر الشعور بالجمال الفنى ، وعلى إشعار الناس بالظرف وضروب التفنن فى المأكل والملبس والأزياء المختلفة .

وقامت ، إلى جنب الترف والفساد ، حركة استياء تنعى على العهد فسقه ، وتشدد النكير على المفسدين . وارتفعت أصوات الذين خانهم الحظ فلم يمدهم بالمال كما أمد غيرهم ؛ بل قامت حركة زهد تحققر الفانيات فى سبيل الباقيات ، وتستنكف مما وصلت إليه الأخلاق من الانحطاط ، وبما شاع من فنون الظلم والبغى والفجور .

وإذا نظرنا إلى ذلك العهد من الوجهة الدينية تجلى لنا أن التزعة السائدة هى الحرية ، ولا سيما أنه الفيلسفة اليونانية ، كانت قد هبت ريحها فارتفع معها لواء العقل والمنطق فى الأقطار<sup>(٣)</sup> ، وكانت الدولة قد ضمت إليها من الشعوب ما اختلفت أجناسهم ودياناتهم من مسلمين متعددى الفرق ، ونصارى مختلفى

(١) النخاس : بيع الرقيق . والنخاسة : بيع الرقيق .

(٢) طالع المتخبات ص ٦٩ .

(٣) طالع المتخبات ص ٥٤ - ٥٨ .

التزعجات، ومن يهود وصابئة<sup>(١)</sup> وزرادشتيين<sup>(٢)</sup> ومانويين<sup>(٣)</sup> متباينى المذاهب<sup>(٤)</sup>. وكانت المعتزلة من أشهر الفرق الدينية لذلك العهد، بل أشهرها على الإطلاق وأشدها تأثيراً في التحرر الفكرى. وظهرت في أوائل القرن الثامن للميلاد في مدينة البصرة حول حلقة الحسن البصرى ثم انشقت عنه، وكان ذلك على يد واصل بن عطاء (٦٩٩ - ٧٤٨ م) وعمرو بن عبيد (٦٩٩ - ٧٦١ م). وقد تأثرت المعتزلة باللاهوت المسيحى تأثراً جليلاً<sup>(٥)</sup> وكان ليوحنا الدمشقى ابن سرجون (٧٣٠ م)، أثر واسع فيها. وانصرفت المعتزلة إلى الدفاع عن العقائد الإسلامية دفاعاً شديداً، ووضع أصحابها أكثر كتبهم للرد على الرافضة<sup>(٦)</sup> والجهمية<sup>(٧)</sup> الجبرية والثنوية<sup>(٨)</sup> وسائر المجوس. وقد ذكرت امرأة واصل بن عطاء

(١) «الصابئة» هم الذين تركوا التوحيد إلى عبادة الأصنام وقالوا إننا نحتاج في معرفة الله إلى متوسطات إما روحانية وهى الكواكب وإما جسمية وهم بشر يأكلون ويشربون. وانتشرت الصابئة عند الآشوريين والبابليين.

(٢) «الزرادشتيون»: أتباع زرادشت ظهر بفارس في القرن السادس قبل الميلاد، ويذهب إلى أن أصل العالم الميدان المتضادان: يزدان (النور) وأهرمن (الظلمة) ولين يزالا في صراع حتى يتغلب الخير على الشر، وفلسفة زرادشت مدونة في كتاب يسمى «زندافستا».

(٣) «المانويين»: أصحاب مانى بن فاتك (القرن الثالث الميلادى) ظهر في زمان سابور بن أردشير، أخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية، ويذهب إلى أن أصل العالم النور والظلمة أنتزجاً بالخط والافتاق، وفرض على أتباعه العشر في الأموال وإقامة الصلاة وترك الكذب والسرقة والقتل والزنا.

(٤) طالع المتعجات ص ٦٢ - ٦٦.

(٥) طالع كتاب «المعتزلة» لزهدي حسن جار الله ص ٢٣ - ٣٢.

(٦) «الرافضة»: عدة فرق من غلاة الشيعة يجمعهم تكفيرهم أبا بكر وعمر، ومما كذلك لأن أنصار زيد بن على بن الحسين سألوه في أبي بكر وعمر فقال: «لا أقول فيهما إلا خيراً وإنما خرجت انتقاماً لقتل جدى الحسين». فانصرفوا عنه فقال لهم: رفضتموني. ومعظم فرقهم من المشبهة والنجسة مثل هشام بن الحكم.

(٧) «الجهمية»: مذهب أتباع الجهيم بن صفوان ويقول بالجبر ونفى اختيار العباد لأفعالهم.

(٨) «الثنوية»: مذهب الفائلين بمبدأين أزليين هما النور والظلمة.

أن زوجها كان ، إذا جئته الليل ، يصف قدميه يصلى ، ولوح ودواة موضوعان أمامه ، فإذا مرت آية فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ثم عاد في صلاته . قال عمرو بن عبيد : « ليس أحد أعلم بكلام غالبية الشيعة ، ومارقة الخوارج ، وكلام الزنادقة والدَّهرية<sup>(١)</sup> والمرجئة<sup>(٢)</sup> والرد عليهم منه » . ولم يكتبف وأصله بالرد على المخالفين وهو قابع في بيته بالبصرة ، بل كان يرسل الوفود من أصحابه إلى جميع الجهات لهذا الغرض . وهكذا قامت ضجة عالية بين الفرق الدينية والاجتماعية ، واشتد النزاع بينها ، وشاعت أساليب المساجلة والنقاش ، وكثرت الفرق كثرة يضيق المقام بذكرها كلها ، وفيما ذكرناه منها كفاية .

تلك صورة مصغرة للبيئة الاجتماعية في عهد الجاحظ : تعدد في العناصر جرَّ انحطاطاً في الأخلاق ؛ واقتصاديات واسعة أدت إلى الترف في المعيشة ، وهو زاده التسرى والرقيق إيغالا في الفسق ، وزاد الحياة الفنية سعة وانطلاقاً ، كما بعث النفوس العالية إلى الأشياء والثورة على الفساد الشائع وإلى الزهد في الفانيات ؛ وفرق دينية ومذاهب متباينة أشهرها المعتزلة .

### ٣ - البيئة الثقافية

كانت البيئة الثقافية من أقوى العوامل في النهضة العباسية إذ أخذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية في نواحيها المتعددة ويمدونها بمالهم وجاههم . وقد بالغوا

(١) « الدهرية » : مذهب من يقولون بقدوم العالم وقيام الدهر وتدييره للعالم وتأثيره فيه وقد أشير إليهم في القرآن الكريم : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » . وجاء ذكر مناهجهم في الشعر أيضاً على حد قول الشاعر :

الدهر أبلان وما أبليت      والدهر غيري وما يتغير

(٢) « المرجئة » : فرقة من المتكلمين اختلفت في سبب تسميتهم كذلك فقيل لتولم بتأخير العمل عن الإيمان ، فلا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وقيل سميت المرجئة لمرجئتهم لأنهم يرجئون أمر أهل الكبائر إلى الله تعالى .

في إكرام الأدباء فجالسهم ، ولولهم أحياناً المناصب العالية . ثم هذا الأمراء والوزراء حذو الخلفاء في أكبر مدن الدولة ، وكانوا يتنافسون في ذلك كما يتنافسون في فتح دور العلم . وظهر في الجيل الجديد ميل شديد إلى الحياة العلمية ، ولا عجب في ذلك وقد رأينا ما كان هنالك من نماذج مدنيات واختلاط حضارات ، ووعى عام أرففه ما ناله القوم من ثقافات الشعوب المتمددة .

أما الثقافات التي كانت شائعة في تلك الأيام والتي كان لها أثر كبير في الأدب فهي ثلاث : الثقافة العربية الخالصة التي تعتمد على القرآن وما يتصل به من علوم الدين كال تفسير والفقه والكلام والتصوف وما إلى ذلك<sup>(١)</sup> ، اعتمادها على الشعر وما يحيط به من العلوم الأدبية كالنحو واللغة وغيرها . ثم الثقافة اليونانية ، وتليها الثقافة الشرقية . ولقد وصلت علوم اليونان وآدابهم إلى الشرق من عهد فتوحات الإسكندر ، فنشر اليونان في الشرق فلسفتهم وطربهم وفلكهم<sup>(٢)</sup> وذاعت ثقافتهم أيضاً على يد الفرس . أما الثقافة الشرقية فهي ثقافة معقدة وهي التي نجدها عند الفرس والهنود والأمم السامية التي كانت منتشرة في العراق ؛ وقد وصلت الثقافة الفارسية بواسطة امتزاج العرب بالفرس وانتقال الخلافة إلى بغداد واشتغال الوزراء والكتّاب الفرس بالعربية . وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالدولة بواسطة التجارة والفتوحات التي شملت قسماً كبيراً من الهند ، وبانضمام بعض الهنود إلى الإسلام ، وكان منهم شعراء وعلماء بالعربية كأبي عطاء السندی الشاعر ، وابن الأعرابي<sup>(٣)</sup> . وكان الفرس القناة الثانية التي جرت ثقافة الهند إلى العرب .

(١) طالع قسم المتخبات ص ٥٨ - ٩٥ .

(٢) طالع ص ٥٤ .

(٣) ابن الأعرابي : هو محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي أبو عبداه (١٥٠-٢٣١ هـ)

راويّة، ناسب، علامة بالغة، من أهل الكوفة . كان يحضر مجلسه نهاء مئة إنسان، كان يسأل ويقرأ عليه فيجيب من غير كتاب ، ولم ير أحد في علم الشعر أغزر منه . مات يسامراً وله تصانيف كثيرة .

وكانت هذه الثقافات المختلفة تؤلف التراث العلمي في ذلك العصر ، وفيها زبدة علوم الأثوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان . وكان لا بد للرجل المستنير الذي يعمل في مناصب الدولة إذ ذاك ، ويقوم في الأمة مقام الرجل القائد ، من أن يأخذ بحظ من هذه الثقافات جميعاً .

ويرجع انتشار تلك الثقافات في البلاد إلى المدارس والترجمات وتشجيع الخلفاء ونشرهم لها . فمدارس جنديسابور والرُّها ونصيبين وحرَّان كانت تنشر الثقافة اليونانية ، ومدرسا الرها ونصيبين كانتا تزخران بالفلسفة اليونانية والتعليم المسيحية . وكان في حران جماعة وثنية تسمى الصابئة نبغت في الدراسات اليونانية ، من علمية وأدبية ، أما جنديسابور فقد أسس النساطرة فيها مركزاً مهماً للثقافة اليونانية ، ونالت شهرة فائقة في الطب . وكانت هذه المدارس كلها منارات لإشعاع في جميع العالم العربي .

وكانت حركة النقل والترجمة<sup>(١)</sup> والنسخ هي القناة الكبرى التي جرت جميع العلوم القديمة إلى الدولة العباسية ، كما كانت المطبعة الحية هي التي نشرت تلك العلوم في جميع البلاد وجعلتها في متناول الجميع . وقد ساعد الخلفاء وأولو الأمر تلك الحركة المباركة فأنت بأطيب الأثمار ؛ وإذا بأرسطو وأفلاطون وبقرط وجالينس وغيرهم ينطقون بلغة العرب ؛ وإذا كتاباتهم في أيدي الكثيرين توقد في العقول نار نهضة مشرقة . واشتهر من النقلة آل بُخْتِيشوع ، وآل حُنَيْن ، وآل ما سَرَّجويه ، وآل نوبخت ، وغيرهم كثيرون ممن كان لهم فضل كبير على العلم وأهله . وقد اعتمد العرب في الفلسفة والطب والهندسة والنجوم والموسيقى على اليونان ، وفي النجوم والسير والآداب والتاريخ والحكم على الفرس ، واقتبسوا من الهند طبها والعقاقير والحساب والنجوم والأقاصيص والموسيقى ، ومن الأنباط والكلدان الفلاحة والزراعة والتنجم والسحر والطلاسم ، ومن المصريين الكيمياء

( ١ ) طالع المنتخبات ص ٥٤ .

والتشريح . وما يؤسف عليه أن الحركة العلمية العباسية لم تستغل الأدب اليوناني استغلالاً يذكر كما استغلت العلم اليوناني والفلسفة اليونانية ؛ فلم تتعرض لشيء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر ، ولذلك أسباب يضيّق عن ذكرها المقام<sup>(١)</sup> . انتشرت الثقافات الأجنبية المختلفة في العالم العربي ، وكان لكل ثقافة نزعة خاصة . أما العقل اليوناني فيال إلى فلسفة التعليل والتحليل ، ميال إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات ، ميال إلى التعمق والعلم . فكان من البواعث الكبرى على إحلال العقل محلاًّ عالياً عند العرب ، في ذلك العهد وعلى التصنيف والاشتغال بالعلوم . وأما العقل الهندي فهو ميال إلى التأمل ، والفكر الهندي هو من ثم تأمل شعري أكثر مما هو علمي ، هو فكر تصويري خيالي تمثيلي ، شديد الاتصال بالعاطفة ؛ وعاطفة الزهد والتصوف عند الهنود قوية لها أثر كبير في حياتهم . فكان العقل الهندي من البواعث الكبرى على الحكمة وشعاب الزهد والقصص عند العرب . في حين كان العقل الفارسي وعاء حوى العلم القديم كله تقريباً ، فكان مؤلفاً من عنصر فارسي وعنصر يوناني وعنصر هندي . والأثر الهندي في الثقافة الفارسية أوسع في الأثر اليوناني . إلا أن الحضارة الفارسية تغلب عليها المادة . فكان العقل الفارسي من الأسباب التي أشاعت الزخرف والتفخيم والإطناب في الكلام والكتابة ، وتوسيع حقل الموسيقى وآلاتها .

تلك كانت البيئة الثقافية في عهد الجاحظ وتلك كانت الحال الاجتماعية والسياسية : تمازج ونزعات مختلفة ، وفوران في كل الحقول ، ومذاهب وفروع في المجتمع والسياسة والدين والعلوم ، وتيسط في كل شيء ، وتداخل وتنافر . ولقد عاش الجاحظ في تلك البيئات مصوراً ومؤرخاً ، يجيأ ويراقب ، يختبر وينظر ، يمتزج وينعزل ، وهكذا كان العصر كله مصوراً في ذاته وفي كتبه ، تتجلى فيه وفيها النزعات والثقافات ، فكان بذلك علماً من أعلام التاريخ والأدب وركناً من أركان العلم والتحرّي .